

(١)

حسن الخاتمة بين الاجتهاد والتوفيق

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، **وبعد:**

فإن المتأمل والمتدبر لسنة الله (عز وجل) في خلقه يرى سرعة انقضاء الأيام والشهور والسنين، أيام تمرُّ وأعوام تكررُ، وما الحياة الدنيا إلا أنفاس معدودة، وآجال محدودة، وفي ذلك عبر لمن نظر وتفكر واعتبر، يقول سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}.

ومن الأمور التي يجب أن يحرص عليها العبد حسن الخاتمة، وحقيقتها: أن يوفق الله (عز وجل) العبد قبل وفاته للابتعاد عما يغضبه سبحانه وتعالى، ويسير له سبل التوبة من الذنوب والمعاصي، والإقبال على الطاعات وأعمال الخير، ثم يكون موته بعد ذلك على هذه الحال الحسنة.

ولما كان الإنسان في الدنيا مرهوناً بعمله، كان التوفيق للعمل الصالح علامة على حسن الخاتمة، كما أخبرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: {إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ}، وفي رواية: {إِنَّمَا الْأَعْمَالُ كَالْوَعَاءِ، إِذَا طَابَ أَسْفَلُهُ طَابَ أَعْلَاهُ، وَإِذَا فَسَدَ أَسْفَلُهُ فَسَدَ أَعْلَاهُ}؛ لذا يجب على كل إنسان أن يجتهد ليحسن خاتمته، وأن يستعد للقاء الله (عز وجل) بالعمل الصالح، كما وجهنا القرآن الكريم بقوله سبحانه: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، فمن اتقى الله (عز وجل) وأطاع أوامره، وانتهى بنواهيها، وفقه الله تعالى

(٢)

للعمل الصالح ثم يقبضه عليه ، كما بين النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَعْْبُدُ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ)، فقيل كيف يستعمله يا رسول الله؟، قال: (يُؤَفِّقُهُ لِعَمَلِ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ)، وفي رواية: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَعْْبُدُ خَيْرًا عَسَلَهُ)، قيل: وَمَا عَسَلَهُ؟، قال: (يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ)، فالعبرة في الأعمال بخواتيمها ، فمن وفقه الله سبحانه وتعالى للطاعة والعبادة ، وداوم على فعل الخير ختم له بحسن الخاتمة ، وكان من السعداء الفائزين بالجنة ، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِالْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ}.

وأما من عصى الله (عز وجل) وخالف أوامره ، وانغمس في الشهوات والأهواء كان من الأشقياء الخاسرين ، وكانت خاتمته خاتمة سوء ، كما قال تعالى: {...وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا}، وقال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَبِالنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ}.

لذلك دعانا ربنا تبارك وتعالى إلى ضرورة السعي الجاد والعمل المشمر لتحقيق حسن الخاتمة ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، أَي: حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ يَكْرَمُهُ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ، كالشهيد يأتي يوم القيامة وجرحه يثغب دماً ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، قال (صلى الله عليه وسلم): (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكَلِّمُ

(٣)

أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ
يَنْتُجِبُ دَمًا ، اللُّونُ لَوْنُ الدَّمِّ ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمَسْكِ).

وكذلك من مات حاجًا بُعِثَ يومَ القيامة مُلَبِّيًا ، فعن ابنِ عَبَّاسٍ (رضي الله
عنهما) أَنَّ رَجُلًا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَوَقَفَتْهُ نَاقَتُهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ ،
فَمَاتَ ، فَقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ ، وَكَفِّوْهُ فِي تَوْبِيهِ ، وَلَا
تَمْسُوهُ بِطَيْبٍ ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا) ، وهكذا في سائر
أعمال الخير ، فلينظر كل واحد منَّا في الحال التي يرجو أن يُبعثَ عليها ، ولو فكر
كل واحد منَّا في ذلك جيدًا فيما يحب أن يرى نفسه عليه وما لا يحب أن يرى
نفسه عليه عند لقاء الله (عز وجل) يوم القيامة لما أقدم على عمل سيء أو منكر أو
قبيح قط ، ولا اجتهد أن يكون على الصورة التي يحب أن يلقي الله (عز وجل)
عليها.

ولأهمية هذه اللحظة الفارقة في حياة الإنسان كان الأنبياءُ (عليهم السلام)
يدعون أتباعهم ويوصونهم بالحرص على حسن الخاتمة ، فهذا إبراهيم ويعقوب
(عليهما السلام) قال الله عنهما: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} ، وهذا الكريم يوسف (عليه
السلام) يطلب من الله حسن الخاتمة ، فيقول: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي
مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} .

(٤)

ونبينا (صلى الله عليه وسلم) مع أن الله (عز وجل) غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر إلا أنه (صلى الله عليه وسلم) كان حريصاً على توجيه أمته إلى حسن الخاتمة ، فكان يُكثِرُ فِي دُعَائِهِ أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ) ، وكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم): (اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَأَجِرْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ).

وكان عثمان بن عفان (رضي الله عنه) إذا وقف على القبر يبكي حتى تُبلَّ لِحْيَتُهُ ، وقال: لَوْ أَنَّي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤَمِّرُ بِي ، لَأَخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيَّتِهِمَا أَصِيرُ ، ويقول سهل التستري (رحمه الله): خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة ، وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: { وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ }.

وليس الأمر في حسن الخاتمة مقصوراً على العبادات من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، ودعاء، وذكر، وقراءة قرآن فحسب، إنما يتجاوز ذلك إلى كل عمل صالح يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله (عز وجل).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسوله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أخوة الإسلام:

إن حسن الخاتمة توفيق من الله تعالى ، وهي رجاء الصالحين ، ومن الأمور

التي تعين على حسن الخاتمة:

* **الإيمان بالله عز وجل ، والاستقامة على منهجه وطريقه:** قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ، وهذه البشارة تكون للمؤمنين عند الاحتضار ، وفي القبور ، وعند البعث منها □

* **حسن الظن بالله عز وجل مع حسن العمل،** فإن الله (عز وجل) عند ظن عبده به، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي...) ، وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) قال: سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل وفاته بثلاث يقول: (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ) ، فعلى العبد أن يحذر من سوء الظن بالله (عز وجل) واليأس من رحمته ، وينبغي أن يكون قلبه معلقاً بالرجاء في الله سبحانه وتعالى.

على أن حسن الظن لا بد وأن يصحبه حسن العمل ، فعن الحسن (رضي الله عنه) قال: " لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالْتَّمَيِّ ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَقَهُ الْعَمَلُ ، إِنْ قَوْمًا أَلْهَتْهُمْ أَمَانِي الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ ، وَقَالُوا : نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَكَذَبُوا ، لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لِأَحْسَنُوا الْعَمَلَ " ، وذلك أن الأمل بلا عمل أمل أخرج فارغ لا طائل منه.

* **التوبة والإنابة لله عز وجل وكثرة الاستغفار،** قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَاسْتَغْفِرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ).

* **المدائمة على العمل الصالح** فالطاعات ليس لها زمن معين ، بل إنها مستمرة دائمة بدوام حياة الإنسان وتحقق شروط تكليفه بها ، وهذا ما كان يفعله النبي الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فالمدائمة على الطاعات والعبادات هو امتثال لقول الله تعالى: {وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، وامتثال لقوله تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} أي: إذا انتهيت من عبادة وطاعة فتلبس بطاعة وعبادة أخرى قاصداً بها وجه الله عز وجل.

والمدائمة على العمل الصالح من أحب الأعمال إلى الله (عز وجل) ودليل على حسن الخاتمة ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) أَنَّهَا قَالَتْ: سُئِلَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ : (أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ) ، فهنيئاً لمن وفقه الله لطاعته ، وأحسن عمله ، وحسن خلقه ، وسعى في قضاء حوائج الناس ، وفرج عنهم كربهم ، ونشر الخير في مجتمعه ووطنه.

وإذا كان حسن الخاتمة من الأمور التي ينبغي أن نجتهد من أجلها ، فإنه ينبغي أن يكون الخوف من سوء الخاتمة ماثلاً أمام عين الإنسان في كل لحظة ، لأن الخوف منها يدفع الإنسان إلى الإخلاص في العمل ، قال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ).

ألا فليحرص كل عاقل على حسن الخاتمة لكل أعماله الدنيوية والأخروية ، الدنيوية لعمارة الكون ، والأخروية لتحقيق السعادة الأبدية وهي الفوز بالجنة التي

(٧)

أعدّها الله (عز وجل) لتكون دار الكرامة لمن حسنت خاتمتهم وأجهدوا أنفسهم من أجل الوصول إلى محبة الحق جل جلاله.

فاللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقاك ، واجعلنا مع الذين أنعمت عليهم في جنتك وجوارك .